كتاب النية والاخلاص والصدق

﴿ فضيلة النية ﴾

قال الله تعالى ﴿ ولا تَطرُدِ الّذينَ يَدعُونَ رَبَّهمْ بِالغَداةِ والعَشيّ يريدُونَ وجهَهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ إنْ يُريدَا إصلاحاً يُوَفّقِ اللهُ بينهُما ﴾ والمراد بتلك الارادة هي النية وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما الأعمالُ بالنّيّاتِ ولكلّ امرِئٍ ما نَوَى فمنْ كانتْ هِجرَتهُ إلى اللهِ ورسولِهِ فَهجرَتُهُ إلى اللهِ ورسُولِهِ ومنْ كانَت هِجرتهُ إلى دُنيا يُصيبُها أو امرَأةٍ يَنكِحُها فَهجرَتهُ إلى ما هاجَرَ اليهِ ﴾ وفي حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال ﴿ إنّ بالمَدينةِ أقواماً ماقطَعنا وادِياً ولاَ وَطِئنا مَوطِئاً يَغيظُ الكفّارَ ولا أنفقنا نَفقةً ولا أصابتْنا مَخمَصةٌ إلاّ شَرِكونا في ذلكَ وهُمْ بالمَدينةِ ﴾ قالوا وكيف ذلك يارسُولَ اللهِ ولَيسُوا مَعنا قال ﴿ حَبَسهُمُ العُذرُ ﴾ فشركوا بحسن النية وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ يُبعَثُ كلُّ عبدٍ على ماماتَ عليه ﴾ وفي حديث أبي هريرة ﴿ منْ تَزَوّجَ امرأةً على صَدَاقٍ وهُوَ لا يَنوِي أداءهُ فهُوَ زَانٍ ومَنِ ادّانَ دَيناً وهُوَ لاَ يَنوِي قضاءهُ فهُوَ سارِقٌ ﴾ *

﴿ تفضيل الاعمال المتعلقة بالنية ﴾

اعلم ان الاعمال تنقسم الى ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات (فأما المعاصي) فلا تتغير عن موضعها بالنية أعني ان المعصية لا تنقلب طاعة بالنية

كالذى يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيراً من مال غيره أو يبنى مدرسة أو مسجدا بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر فى اخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر فان عرفه فهو معاند للشرع وان جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات انما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيهات ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى ماعصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل قيل ياأبا محمد هل تعرف شيأ أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل وقد قال تعالى ﴿ فاسألوا أهلَ الذّكر إن كنتم لاتَعلَمُونَ ﴾ *

نعم للنية دخل فى المعاصى وهو أنه إذا انضاف اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها *

(القسم الثانى الطاعات) وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله لا غير فان نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذ كل واحدة حسنة ثم تضاعف كل حسنة بعشر أمثالها كما ورد ومثاله القعود فى المسجد فانه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل

أعمال المتقين (أولها) أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله *

(ثانيها) أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون فى صلاة *

(ثالثها) الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات

(رابعها) عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر فى الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال الى المسجد (خامسها) التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره والتذكر به (سادسها) أن يقصد افادة العلم بأمر بمعروف ونهى عن منكر اذ المسجد لا يخلو عمن يسىء فى صلاته أو يتعاطى مالا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده الى الدين فيكون شريكا معه فى خيره الذى يَعْلَم منه فتتضاعف خيراته (سابعها) أن يستفيد أخا فى الله فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة . والمسجدُ معشش أهل الدين المحبين لله وفى الله *

(ثامنها) أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى فى بيت الله مايقتضى هتك الحرمة ـ فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات اذ مامن طاعة الا وتحتمل نيات كثيرة وانما تحضر فى قلب العبد المؤمن بقدر جده فى طلب الخير وتشمره له ـ فبهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات *

(القسم الثالث المباحات) وما من شئ من المباحات الا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات كالتطيب مثلا فانه بقصد التلذذ والتنعم مباح . وأما اذا نوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وترويح جيرانه ليستريحوا بروائحه . ودفع الرائحة الكريهة عن نفسه التى تؤدى الى

ابتداء مخالطيه . وزيادة فطنته وذكائه ليسهل عليه درك مهمات دينـه بالفكر فهذا وأمثاله من النيات الحسنة التى لا يعجز عنها من غلب طلب الخـير على قلبـه مما ينال بها معالي الدرجات . وأما من قصـد بالتطييب اظهار التفاخر بكثرة المال أو رياء الخلق ليذكر بذلك أو ليتودد الى قلوب النساء الأجنبيات أو لغير ذلك فهذا يجعل الطيب معصية ويكون فى القيامة أنتن من الجيفة والمباحات كثيرة لا يمكن احصاء النيات فيها فقس بهذا الواحـد ماعداه . ولهذا قال بعض السلف (إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شئ نية حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى للخلاء) وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب الى الله تعالى لأن كل ماهو سبب لبقاء البـدن وفراغ القلب من مهمات البـدن فهو معين على الدّين . فمن قصـد من الأكل التقوّى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به الى ولد صالح يعبد الله تعالى بعـده كان مطيعا بأكله ونـكاحه وبالجملة فاياك ثم إياك أن تستحقر شيأ من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعـدّ جوابها يوم السؤال والحساب فان الله مطلع عليك وشهيد وما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد وقد قال الحسن أن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بينى و بينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخـذت لبنة من حائطى وأخـذت خيطا من ثوبى فهـذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين فان كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من المغـترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك *

﴿ فضيلة الاخلاص وحقيقته ﴾

قال الله تعالى ﴿ وما أُمِرُوا إلاّ لِيعبُدُوا اللهَ مُخلِصينَ لهُ الدّينَ ﴾ وقال ﴿ ألاَ لهُ الدّينُ الخالِصُ ﴾ وقال تعالى ﴿ إلاّ الّذينَ تابوا وَأصلَحُوا واعتَصَمُوا باللهِ وأخلَصُوا دينَهُم للهِ ﴾ وقال تعالى ﴿ فمَنْ كانَ يَرجُو لِقاءَ رَبّهِ فَلْيعمَلْ عمَلاً صالِحاً ولا يُشرِكْ بِعبادَةِ رَبّهِ أحَدًا ﴾ وعن عليّ كرم الله وجهه : لاتهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول . فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل ﴿ أخلِصِ العَمَلَ يَجْزِكَ مِنهُ القَليل ﴾ وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيآته *

واعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصاً . والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلاّ أن الشرك درجات وقدجرى العرف على تخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى عن جميع الشوائب فاذا امتزج قصد التقرب بباعث آخر من رياء أو غيره من حظوظ النفس فقد خرج عن الاخلاص ومثاله أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من عدوّ له أو يصلي بالليل لغرض دنيوي أو يتعلم العلم أو يخدم العلماء والصوفية لذلك أو يعود مريضاً ليعاد اذا مرض أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيأ من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر اليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعثه التقرب الى الله تعالى ولكن انضاف

اليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حدّ الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق اليه الشرك * وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح اليه النفس ويميل اليه القلب قلّ أم كثر اذا تطرّق الى العمل تكدر به صفوه وزال به اخلاصه فان الخالص من العمل هو الذى لاباعث عليه إلاّ طلب القرب من الله تعالى وهذا لايتصور إلاّ من محب لله لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار ولذا كان علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذ ذاك يتيسر الاخلاص وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لايرى وجه الآفة فيها فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق والا التحق باتباع الشياطين وهو لايشعر *

﴿ فضيلة الصدق ودرجاته ﴾

قال الله تعالى ﴿ رِجالٌ صَدَقوا ماعاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ ﴾ وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ الصِّدْقَ يَهدى إلى البِرِّ والبِرَّ يَهدى إلى الجَنّةِ وإنّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حتّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ صِدّيقاً وإنّ الكَذِبَ يَهدى إلى الفُجُورِ والفُجُورَ يَهدى الى النّارِ وإنّ الرَّجلَ لَيَكذِبَ حتّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذّاباً ﴾ *

والصدق درجات (الأولى صدق اللسان) وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم الا بالصدق وكمال صدق القول الاحتراز عن

المعاريض فقد قيل فى المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب الا أن ذلك مما تمسّ اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة فى بعض الأحوال وفى تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم وفى الحذر عن الظلمة وفى قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على الأسرار . فمن اضطر الى شئ من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين فاذا نطق به فهو صادق وان كان كلامه مفهما غير ماهو عليه لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه . نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل الى المعاريض ماوجد اليه سبيلا . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توجه الى سفر ورّى بغيره . وذلك كى لاينتهى الخبر الى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب فى شئ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَيس بكَذّابٍ من أصلَح بين اثنَينِ فقال خيرًا أو أنمى خيرًا ﴾ ورخص فى النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع . من أصلح بين اثنين . ومن كان له زوجتان . ومن كان فى مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول الى النية فلا يراعى فيه الا صدق النية وارادة الخير (فمهما صح قصده وصدقت نيّته وتجردت للخير ارادته صار صادقا وصديقاً كيفما كان لفظه) ثم التعريض فيه أولى وطريقه ماحكى عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو فى داره فقال لزوجته خطى بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولى ليس هو ههنا . واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله

صدقا وأفهم الظالم أنه ليس في الدار . وهذا الذى ذكرناه من الاحتراز عن صريح اللفظ وعن المعاريض الا عند الضرورة هو الكمال الأوّل فى صدق القول . وهناك كمال ثانٍ وهو أن يراعى معنى الصدق فى ألفاظه التى يناجي بها ربه كقوله ﴿ وجّهتُ وجهى للّذى فطَر السّموات والأرضَ ﴾ فان قلبه ان كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كذب . وكقوله ﴿ إيّاكَ نعبُدُ ﴾ وكقوله أنا عبد الله فانه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطالب سوى الله لم يكن كلامه صدقا . ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه فانه ان كان عبدا لنفسه أو عبد الدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا فى قوله . (وكل ماتقيد العبد به فهو عبد له) كما قال صلى الله عليه وسلم ﴿ تَعِسَ عبدُ الدّينارِ تَعِسَ عبدُ الدّرْهم وعبدُ الخَميصَة ﴾ سمى كل من تقيد قلبه بشئ عبدا له وانما العبد الحق لله عزّ وجلّ من أعتق من غير الله تعالى واشتغل بالله وبمحبته وتقيد ظاهره وباطنه بطاعته فلا يكون له مراد إلاّ الله تعالى *

(الدرجة الثانية) الصدق فى النية والارادة ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلاّ الله تعالى فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية *

(الثالثة) صدق العزم وهو الجزم فيه بقوة والصادق فيه هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوةً تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردّد بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات كمن يقول ان

رزقني الله مالا تصدّقت بشطره وان أعطاني الله ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل الى خلق فصدق هذه العزيمة هو سخاء نفسه بما نوى *

(الرابعة) في الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال اذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ولذلك قال الله تعالى ﴿ رِجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ ﴾ فقد روى عن أنس ان عمّه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع قال فشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال الى أين فقال واهاً لريح الجنة أني أجد ريحها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته ما عرفت أخي الا بثيابه فنزلت هذه الآية ﴿ رِجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا اللهَ عَليهِ ﴾ *

وقال مجاهد : رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا ان رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فنزلت ﴿ ومِنهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضلِهِ لَنَصَّدَّقَنّ ولَنَكونَنَّ مِنَ الصّالحينَ فلمّا آتاهُمْ مِنْ فَضلِهِ بَخِلوا بِهِ وتَوَلّوْا وهُمْ مُعْرِضونَ فأعقَبَهُمْ نِفاقاً في قُلوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أخلَفوا

الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا *

(الخامسة) الصدق في الاعمال وهو أن يجتهد حتى لاتدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به فمن وقف على هيئة الخشوع في صلاته لا يراعي غيره ولكنه في الباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهو كاذب بلسان الحال في عمله غير صادق فيه فالصدق فيه هو استواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره *

اذا السرّ والاعلان في المؤمن استوى ... فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا
فان خالف الاعلانُ سرًّا فما له ... على سعيه فضل سوي الكدّ والعنا

ثم درجات الصدق لانهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الامور دون بعض فان كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا *

كتاب المحاسبة والمراقبة

﴿ بيان لزوم المحاسبة ﴾

قال الله تعالى ﴿ ونضعُ الموازينَ القِسطَ ليومِ القيامةِ فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً وإن كانَ مِثقالَ حبةٍ منْ خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ ووُضعَ الكتابُ فترى المُجرمينَ مُشفقينَ ممَّا فيهِ ويقولونَ ياويلتَنا مالِ هذا الكتابِ لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ووجدُوا ما عمِلُوا حاضراً ولا يَظلِمُ ربُّكَ أحداً ﴾ وقال تعالى ﴿ يومَ يبعثُهُمُ اللهُ جميعاً فينبِّئُهم